السورة بألا يقدموا بين يدي الله ورسوله أي بأن يقفوا عند حدود الله عز وجل ولا يتجاوزوها ناسب ذلك أن تُختم الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأن تقوىٰ الله هي التي تُعين العبد علىٰ طاعة ربه عز وجل وعلىٰ امتثال أمره واجتناب نهيه، فتقوىٰ الله والخوف منه والعلم بمراقبة الله له وأنه عز وجل يسمع ويرىٰ هي التي تحمل العبد علىٰ طاعة ربه في السر والعلانية.

فعدم التقدُّم معناه الوقوف عند حدود الله وطاعته في كل ما أمر به أو نهىٰ عنه وتعني أيضًا عدم الاندفاع نحو المعاصي والذنوب، والتقوىٰ تُعَضِّد هذا المفهوم. فالتقوىٰ تلحظ فيها جانب الحذر والحيطة والحفظ والصيانة.

فالتقوىٰ اتقاء ووقاية واجتناب الذنوب صغيرها وكبيرها دقها وجلها ما ظهر منها وما بطن والخوف من الله في السر والعلن. فالتقدم اندفاع نحو المعاصي ومخاطرة غير مأمونة العواقب وتَعدٍّ وتسيب وَجُرْأة وانفلات بينما التقوىٰ حذر وحيطة ووقوف عند حدود الله وهي بهذا المعنىٰ بمثابة صمام الأمن الذي يكبح جماح النفس ويحدُّ من اندفاعها ويجعلها تتردد وتفكر في العواقب. فالتقوىٰ علاج ناجع للتقدم والاندفاع والتجاوز فهي بمثابة اللجام أو الزمام للدابة المسرعة الذي يكبح من جماحها ويحد من اندفاعها.

* * *

التقوى من أعمال القلوب

والتقوىٰ محلها القلب فهي من أعمال القلوب لا الجوارح وفي حديث مسلم أنه ﷺ أشار إلىٰ قلبه الشريف وقال: «التقوى ههنا».

ولذلك ختم الله الآية الأولىٰ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالله يسمع ما يقولون ويعلم ما في القلوب وما خفي عن العيون فمع التقوىٰ يأتي دائمًا وصف الله عز وجل بالعلم كما في قوله: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]

فقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: هو عز وجل لا أنتم، فهو تعليل للنهي عن تزكية النفس بالقول فالله أعلم بما في القلب: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ولذلك نهانا رسول الله ﷺ عن المدح أو أن نكيل الثناء لكل من هب ودب فنحن لا نعلم إلا المظاهر والله يعلم ما في السرائر.

وفي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: «**قطعتم ظهر الرجل**» وفي رواية: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**» ثم قال: «**إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسبه كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحدًا**» وقال كما في حديث مسلم: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**» فكثيرًا ما يؤدي المدح إلى الغرور بالنفس.

وقال الله أيضًا في سورتنا هذه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وبعد أن تكلم في سورة الفتح عن «التقوى» أعقب ذلك بالكلام عن علمه عز وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

والقلب هو المسيطر على تصرفات العبد كما ورد في الحديث المتفق عليه: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» ولذا ربط الله في هذه السورة بين التقوى والقلب فقال عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ فالامتحان يكون لما في القلوب والسرائر لمعرفة ما فيها من التقوى والخوف من الله عز وجل.

وقد حدث هذا الامتحان للقلوب في غزوة الحديبية كما أسلفنا حيث كان التقدم والتجاوز من الصحابة بسبب تعنت قريش لكن سرعان ما أقال الله عثرتهم بأن ألزمهم كلمة التقوى بعد أن أنزل السكينة في قلوبهم كما ورد في سورة الفتح وفي الآية التي ذكرناها منذ قليل.

والنهي عن التقدم أوضحه الله في الآيات التالية وذلك بالنهي عن صوره وأنواعه

O BEIKAN.COM

فكان النهي عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والنهي عن الجهر له كما يفعل بعضهم مع بعض فرفع الصوت والجهر بالقول من صور التقدم المحظور ومن أمثلة الاندفاع الممنوع ففيهما انتفاش وانتفاخ واعتداد فتأتي التقوىٰ التي من معانيها الانقباض والتقلص والاحتشام؛ لتهذب النفوس ولتعيد الأمور إلىٰ نصابها بعدما حدث من التفلت والتقدم، وانزلاق الأقدام فكان لا بد من الأمر بالتقوىٰ؛ لكبح الجماح ولإعادة الالتزام والانضباط والوقوف عند حدود الله .

ويمتدح الله في مقابل هؤلاء يمتدح الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ فهؤلاء هم الذين انتفعوا بزاد التقوىٰ وهنا نرىٰ العلاقة بين كلمة «التقوىٰ» وكلمة «يغضون» فغض الصوت يقابله رفع الصوت وكلاهما علىٰ طرفي نقيض. كما أن كلمة التقوىٰ تتماشىٰ مع كلمة الامتحان في قوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ فمن يعلم أنه في امتحان فإنه يكون علىٰ حذر وذا حيطة وانتباه وكذلك تتماشىٰ مع كلمة «الحجرات» كلمات «العقل» و«الصبر» وكلها يحمل معنىٰ المنع والوقاية وهو الأصل اللغوي والجذر الذي يجمع بين معاني تلك الكلمات كما بينا من قبل .

❊ ❊ ❊

نقيضان لا يجتمعان

وهكذا نرىٰ أن الأمر بالتقوىٰ يُلقي ظلاله وآثاره علىٰ الآيات الخمس الأولىٰ من سورة الحجرات والتي تشمل النداءين الأول والثاني للمؤمنين في هذه السورة الكريمة وإذا نظرنا بعد ذلك إلىٰ النداء الثالث فإننا نجده يتناول الأمر بالحذر والحيطة من نبأ الفاسق وذلك في قوله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ فالفسوق ضد التقوىٰ وهما نقيضان لا يجتمعان كما بينا من قبل انظر في ذلك إلىٰ قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧] وإلىٰ قوله : ﴿ **قُلْ**

﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣] فالفسوق خروج وانسلاخ عن أوامر الشرع، والتقوىٰ التزام ووقوف عند حدود الله عز وجل.

والأمر بالتبين أي: بعدم التعجل في قبول خبر الفاسق قبل التمحيص والتدقيق فالتعجل صورة أخرىٰ من صور التقدم المحظور؛ لأنه يؤدي إلىٰ تجاوز الحدود، ويقابل ذلك التقوىٰ التي تعني التبين والتثبت والتحفظ ولو لم تكن التقوىٰ والتزام أوامر الشرع لوقع الضرر ولحدث الندم ولكان العنت ولولا تحبيب الله الإيمان لنا وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إلينا من جانب الله عز وجل لأصابنا العنت والمشقة والحرج وهذا التحبيب والتكريه إنما هو صورة أخرىٰ من رحمة الله بالمؤمنين وهو يشبه قوله عز وجل: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وقد تقبلت قلوبهم التقوىٰ والإيمان بقبول حسن ولذلك وصفهم الله بالرشد وهو كمال النضج، والرشد يتفق مع معاني الحجر والعقل والصبر والتقوىٰ وأيضًا مع الحكمة التي أشارت إليها خاتمة الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم بين الله لنا مغبة وخطورة السماع لنبأ الفاسق دون تثبت بأن رتب عليه وقوع القتال بين المؤمنين وطلب منهم أن يصلحوا ذات بينهم فإن حدث البغي فلابد من قتال الفئة الباغية حتىٰ تفيء إلىٰ أمر الله ثم طالب بعد ذلك بالإصلاح بالعدل والقسط لئلا تتجدد الحرب وحتىٰ ينعم الناس بالاستقرار والأمن. والبغي صورة من صور التقدم المحظور والتجاوز والعدوان والظلم وعلاجه الفيء وهو لغة الرجوع والعودة أي: الالتزام والوقوف عند حدود الشرع والامتثال لأوامر الله عز وجل وهو ما يتفق مع معنىٰ كلمة التقوىٰ ولذلك ختمت آيات هذه المجموعة الثانية والخاصة بنبأ الفاسق أي: الخارج عن حدود الدين، ختمت أيضًا بالأمر بالتقوىٰ حيث جاء هذا الأمر في موقعه تمامًا وقرَّ في مكانه المناسب والذي أُعدَّ وهيئ له ولذا

OBEIKAN.COM

جاء الأمر بالتقوى وقبله الأمر بالإصلاح والذي تكرر ثلاث مرات وذلك لبيان أن الإصلاح بالعدل والقسط إنما هو من صور التقوىٰ والوقوف عند حدود الشرع الحنيف يقول عز وجل: ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

ثم جاء النداءان الأخيران في السورة للمؤمنين واللذان يتعلقان بالمحافظة علىٰ الروابط التي تكون بين المؤمنين بعضهم البعض ومع أهمية هذا الأمر إلا أنه قدم عليه النهي الخاص بالسماع لنبأ الفاسق، فإن خطره أشد وذلك لما يترتب عليه من وقوع القتال بين صفوف المؤمنين.

* * *

اختصاص الرحمة بأهل التقوى

وفي هذا القسم الأخير والذي يحمل التوجيهات المتبقية لجماعة المؤمنين فإنه ينقسم إلىٰ جزئين ذكر في الجزء الأول منها ـ والذي بدأ بالنداء الرابع للمؤمنين في السورة ـ ذكر ضرورة اتقاء السخرية واللمز والتنابز بالألقاب؛ لأنها من صور الفسوق المنهي عنه في السورة والذي يناقض الإيمان وذكر في الجزء الثاني وهو الذي بدئ أيضًا بالنداء للمؤمنين وهو النداء الخامس والأخير في السورة ذكر ضرورة اجتناب الظن السيئ والتجسس والغيبة؛ لأنها أيضًا من صور الفسوق الذي كرّهه الله إلينا ولذا كان من الطبيعي والمتوقع أن تُختم آيات هذه المجموعة الثالثة أيضًا بالأمر بالتقوىٰ فقال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ كما حدث مع آيات المجموعتين الأولىٰ والثانية.

وهكذا بدأت الآيات بالأمر بالتقوىٰ وخُتمت كذلك بالأمر بالتقوىٰ ورتب علىٰ الالتزام بهذه التقوىٰ حلول الرحمة ولذلك في آخر آيات المجموعة الأولىٰ قال عز وجل: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ وفي نهاية آيات المجموعة الثانية قال عز وجل:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفي آخر آيات المجموعة الثالثة قال أيضًا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمتقون: هم الذين يستحقون مغفرة الله ورحمته فهم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل ويقفون عند حدوده التي حدَّها لهم ولا يتجاوزونها كما يفعل الفاسقون الذين يتجاوزون المعالم ويتعدون على الحدود.

فالفسوق: خروج عن الشرع وتجاوز لحدود الله عز وجل وانسلاخ عن الأوامر والزواجر وعدم التقيد أو الالتزام بطاعة الله عز وجل وترى ذلك من خلال المعنى اللغوي لكلمة الفسوق كما بينا من قبل ونضيف إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ والإثم: كل ذنب يستحق فاعله العقوبة وهو من «وثم» الشيء أي: كسره أبدلت الهمزة واوًا، فالسخرية وأخواتها من اللمز والتنابز، والظن السيء وإخوته من التجسس والغيبة كل ذلك إنما هو معاول هدم وكسر وشرخ في جدار الدين، وخروج وانسلاخ عن مقتضى الإيمان.

فهي أمور تناقض التقوى فالتقوى ستر وتحفظ ووقاية بينما الفسوق والإثم كلاهما خروج عن الشرع واستهانة بأوامره ونواهيه كما أن التجسس هتك للحرمات، وكذلك الغيبة نهش للأعراض وتمزيق لأواصر المحبة بين الناس فإن كان الفسوق يؤدي إلى القتال بين المؤمنين وإلى نهش السيوف للأجساد، فإن السخرية وأخواتها والظن السيء وإخوته نهش بالألسنة في الأعراض وتمزيق للحرمات وكلاهما له خطره، وهما وجهان لعملة واحدة ولكن أحدهما يأتينا من خارج جماعة المؤمنين وهو الفاسق الذي يريد أن يشق جماعتنا والآخر يأتينا من داخل الصف المؤمن ليوهن أواصر المحبة وليهدم بنيان المجتمع المؤمن ويأتي عليه من القواعد حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك فينبغي علينا الحذر وعدم التهاون.

* * *

OBEIKAN.COM

كيف نفهم هذه الآية؟

واللقاء الأخير لنا مع كلمة التقوىٰ في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولكنه بدأ هذه الآية بالنداء للناس ولم يقل: (يا أيها الذين آمنوا)؛ لأنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ وهذا خطاب عام للجنس البشري كله من ربهم وخالقهم يدخل فيه المؤمن والكافر، فالأصل واحد وهو آدم وحواء ثم بعد ذلك فرقهم في الأرض أجناسًا مختلفة وأممًا شتىٰ ليتعارفوا فيما بينهم وليتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ وعلىٰ الخير وعلىٰ تحقيق المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة لا ليتقاتلوا أو يتجسسوا أو يتدابروا ويتحاسدوا أو يؤذي بعضهم بعضًا.

وجعل الله الأساس الذي يقوم عليه هذا التعارف والتعاون هو التقوىٰ التي بها يتفاضل الناس فأكثرهم تقوىٰ يكون أكثرهم إكرامًا وأعظمهم عند الله منزلة ومكانة. ولكننا لكي نفهم هذه الآية لابد من ربطها بالآيات السابقة وبكلمة التقوىٰ الواردة في السورة ثلاث مرات بصيغة الأمر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كما بينا منذ قليل، حيث كان النهي في المرة الأولىٰ عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ أي: النهي عن الفسوق والعصيان وإعمال العقل والاجتهاد بغية الوصول إلىٰ رأي جديد أو حكم آخر في أمور قد ورد فيها نص قطعي من الله عز وجل أو من رسول ﷺ فهذا هو الأصل وهو الوقوف عند حدود الله عز وجل ولا تتعداها.

والنهي في المرة الثانية عن متابعة الفاسقين والركون إليهم لما يترتب عليه من حدوث الندم والعنت والبغي والقتال، وفي المرة الثالثة كان الأمر بالتقوىٰ في سياق النهي عن السخرية وأخواتها وعن الظن السيئ وتوابعه لما يترتب علىٰ ذلك من تمزيق الروابط بين المؤمنين والقضاء علىٰ مشاعر المحبة والألفة التي ينبغي أن تسود بينهم.

هذه هي الأمور التي ينبغي أن تتقىٰ وتجتنب فمن اتقاها وتحاشاها فهو الأكرم عند

ربه عز وجل وهو الذي فاز بالرضوان والعفو والغفران فلا ينبغي إذن أن نفسر قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ بمعزل عن الآيات السابقة والخاصة باتقاء المحظورات المذكورة، ولا ينبغي أيضًا أن نستشهد بهذه العبارة الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وحدها فنفصلها عن سياق السورة قبلها ولا ينبغي أيضًا أن نشرق أو نغرب فنأتي في تفسير التقوىٰ بأقوال شتىٰ ونترك ما ورد بشأنها في الآيات التي نزلت لتمهد وتهيئ لهذا المقياس الرباني العظيم ألا وهو مقياس التقوىٰ.

وكم من خطيب يستشهد بهذه العبارة الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولكنه يترك الناس الذين يستمعون إليه في حيرة وعماية لا يعرفون بالتحديد ما هو المطلوب منهم أو ما الذي ينبغي عليهم فعله أو اتقاؤه حتىٰ ينالوا مرتبة الإكرام عند الله عز وجل وحتىٰ يفوزوا بتلك الدرجة الرفيعة يوم القيامة.

فالكلام عن التقوىٰ في هذه العبارة الكريمة ليس نصائح ومواعظ مجردة بل الكلام عن التقوىٰ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه المنهيات المحددة، فالله عز وجل ما أحالنا إلىٰ مجهول أو إلىٰ أمر فيه لبس أو غموض بل هي مسئوليات واضحة وتكاليف معروفة وليست أمورًا هلامية أو عبارات فضفاضة أو بلاغية، فالطريق إلىٰ الجنة والإكرام واضح لا إبهام فيه أو خفاء وحتىٰ يكون كل إنسان علي بينة من أمره فيختار لنفسه ما يشاء ويكون مسئولاً عن هذا الاختيار. فقوله إذن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ إنما هو الغاية من السورة وهو المكافأة والجزاء من الله لمن اتقىٰ هذه المحرمات وترك ما نهىٰ عنه الله وكف عن الناس أذاه فهذه العبارة الكريمة إنما هي تتويج وتشريف وتكريم لمن التزم بهدي ربه ووقف عند حدود الله وتمسك بشرعه ففاز بالنعيم المقيم.

❊ ❊ ❊

OBEIKAN.COM

السر في اختيار صيغة التفضيل

كما أن ورود كلمة التقوىٰ هنا بصيغة أفعل تفضيل (أتقىٰ) ولم يقل مثلاً: (إن أكرمكم من اتقىٰ) ولكن قال: ﴿أَتْقَاكُمْ﴾ أي: أكثركم تقوىٰ ليبين لنا أننا في مسابقة وامتحان فالله يمتحن القلوب للتقوي أي: ليرىٰ مدىٰ قابليتها للقيام بمقتضيات التقوىٰ وتبعاتها الجسام كما بينا من قبل، فمن حصل في هذا الاختبار علىٰ درجات أكثر وكان حظه ونصيبه من التقوىٰ أوفر فهو المؤهل لدخول هذا الامتحان واجتيازه بسلام وللفوز برضا الله وما عنده من الإكرام.

وهكذا يهيب الله بنا أن نطهر أنفسنا من الفسوق والبغي والتطاول والسخرية وأخواتها والظن السيئ وما يترتب عليه وأن نتعاون علىٰ البر والتقوىٰ لا علىٰ الإثم والعدوان وذلك حتىٰ نعيش في سعادة ومحبة ووئام.

وهذه الأمور التي نهانا الله عنها أو أمرنا بها إنما هي أمور واضحة ومعروفة يستوي في معرفتها وفي أهميتها المؤمن وغير المؤمن إذ لا يمكن لأي عمران بشري أن يقوم إلا علىٰ هذه المقومات وبدونها تخرب الدنيا وتفسد الحياة وتنهار المجتمعات فهي أمور يعرفها كل منا بفطرته ويشعر بها مِن داخله فمن منا مثلاً يحب أن يساء إليه أو يتجسس عليه؟ فكذلك ينبغي أن نعامل الناس بالمثل وأن نحفظ لهم كرامتهم لنكون من المكرمين عند الله يوم القيامة.

فليس الدين بالتمني أو الادّعاء ولا بالكلام الطنان أو الرنان بل بالسلوك الطيب وبالالتزام وبكف الأذىٰ عن الناس، فالمسلم الحق من سلم الناس من لسانه ويده وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون.

* * *

OBEIKAN.COM

العندية المقدسة

والآن لنختم تفسير هذه الآية الكريمة بالكلام عن العندية الشريفة وهي عندية الله عز وجل ففي السورة عنديتان شريفتان، عندية الله عز وجل وعندية رسوله ﷺ، فهي أيضًا عندية من عند الله مباركة طيبة وقد مر بنا الكلام عن عندية الرسول ﷺ عند تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] وهناك عندية أخرىٰ مباركة تكلمت عنها هذه الآية الكريمة وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]ونلاحظ أن التقوىٰ هي القاسم المشترك بين العنديتين الشريفتين.

فهذه العندية في آيتنا هذه تبين لنا مدىٰ هذه الإكرام الذي سيناله أهل التقوىٰ عند الله ومدىٰ عظمة هذه المنزلة التي سيبلغونها بفضل الله يوم القيامة، فعندما تقول: حضرت حفلة تكريم عند فلان الوجيه، أو عند الوزير أو عند الأمير فإنك تستطيع أن تتصور كيف يكون هذا التكريم فهو علىٰ قدر صاحبه إذ أنه يتفاوت علىٰ قدر منزلته ووجاهته وغناه، فإكرام الوزير ليس كإكرام الأمير فما بالك بإكرام رب العالمين كيف يكون؟ حدث ولا حرج، ففي الحديث المتفق عليه أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ولذلك فإذا وصف الشيء بأنه من عند الله أو بأنه عند الله فهو شيء عظيم وليس له مثيل في دنيانا أو نظير كما قال الله عز وجل في خواتيم سورة آل عمران وهو يتكلم عن ثواب المؤمنين: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقوله أيضًا بعد ذلك في المتقين والأبرار: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]. ونلاحظ أنه في كل آية من الآيتين السابقتين قد كرر لفظ العندية الشريفة مرتين، وذلك للتنويه إلىٰ عظمة هذه العندية وإلىٰ رفعة شأنها.

OBEIKAN.COM

ما عندكم ينفد وما عند الله باق

وانظر إلى المقارنة بين ما عند الله عز وجل وما عند الناس مع أنه لا وجه للمقارنة أصلاً، فهو قياس مع الفارق الكبير فيقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦] ويقول أيضًا عن نعيم الآخرة: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ولذلك ينبغي أن تكون همتنا عالية وأن نيمم وجهنا ونبذل جهدنا لنيل ما عند الله في الآخرة؛ لأنه كما قال عز وجل: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] وقوله أيضًا: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

كما أن الله وحده هو الذي بيده الرزق يقول عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] فهو عز وجل الرزاق ذو القوة المتين، ولذلك فعلينا أن نلتمس الرزق من عنده عز وجل كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] وكذلك فأسباب النصر بيده وحده عز وجل كما في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقوله أيضًا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وما دام الأمر كذلك فلنطلب النصر من عنده عز وجل: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكذلك من أراد مغانم الدنيا وثواب الآخرة فليطلبها ممن يملكها جميعًا يقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤] وقال عز وجل في شأن المنافقين الذين لا يفقهون حقيقة الأمور: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ

عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وما دام الشيء أو الأمر عند الله عز وجل فهو الخير الذي لا خير بعده أو لا خير يضاهيه أو يدانيه وانظر إلى أسلوب العظمة والتفخيم في الكلام عن ليلة القدر: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ [الدخان: ٤-٥] وأما إن كان الشيء أو الأمر من عند غير الله فلا خير فيه أو نفع: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولذلك فاحرص على ما عند الله واستمسك به فإن فاتك فقد فاتك خير كثير وكانت الحسرة وكان الخسران المبين، وانظر إلى التحذير في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠].

ولذلك يلفت الله أنظار العباد إلى أن المقياس هو ماكان عند الله لا ما كان عند الناس، فطالما أن الله أمرنا بشيء أو رضيه لنا فينبغي أن نأخذ به ونرضاه لأنفسنا وأن نعض عليه بالنواجذ ونضرب بما سواه عرض الحائط يقول عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ليبين لنا أنه ينبغي أن يكون كذلك عندنا، وذلك حتى تستقيم أمور حياتنا، ولذلك نهانا الله عز وجل بعد ذلك عن النسيء: وهو تأخير بعض الشهور وتقديم بعضها والعبث بنظام الزمان الذي وضعه الله لتنتظم به أمور الناس.

كما أن رمي الناس بالفحشاء كما حدث مع السيدة عائشة أمر عظيم ولا ينبغي أن يستهان به فالأعراض لها حرمة مصونة ولا ينبغي أبدًا أن يخاض فيها ولذلك قال عز وجل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] أي: كان ينبغي أن يكون عندكم أيضًا عظيمًا، ولذلك قال عن هؤلاء الذين يخوضون في الأعراض ويرمون الأبرياء بالفحشاء ولا يأتون بأربعة شهداء قال فيهم: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] ولم يقل: (فأولئك هم الكاذبون) بل قال: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ليبين لهم أنهم ينبغي أن يكونوا كذلك عندهم أي: كاذبين

فاسقين لا تقبل شهادتهم ، لا أن يكونوا صادقين عندكم بينما هم عند الله كاذبون.

وكذلك الشأن بالنسبة لإيذاء النبي ﷺ في حياته والنكاح من أزواجه بعد مماته فهو أمر عظيم عند الله وينبغي أن يكون كذلك عندكم ولذلك قال عز وجل في ذلك : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

❊ ❊ ❊

الدنيا ليست هي المقياس

ولما قال الكفار من أهل الترف والمنعمون في الدنيا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فقد قاسوا أمر الآخرة على أمر الدنيا أي : ظنوا كما أعطاهم الله وفضلهم في الدنيا على المؤمنين فسيعطيهم أيضًا دون المؤمنين في الآخرة وظنوا أنه ما أعطاهم إلا لكرامتهم عليه ولأن لهم عنده مكانة وزلفى فرد الله عليهم زعمهم هذا وقال : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]

فهذه الأموال وكذلك الأولاد لا تقربهم عند الله يوم القيامة إذ لم يستعملوها في مرضاة الله بل في الصد عن سبيله ولذلك فلن تقربهم أو تنفعهم عند الله في الآخرة بل ستكون عليهم حسرة ووبالاً كما في قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] ويقول أيضًا : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] ويقول أيضًا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

OBEIKAN.COM

فالدنيا ليست هي المقياس وليس العطاء فيها دليلاً على الرضا والإكرام من عند الله فقد يكون ذلك ابتلاء واختباراً أو استدراجًا من الله فالدنيا من هوانها عند الله فإنه يعطيها لكل من هبَّ ودبَّ أما الآخرةُ سلعةُ الله الغالية فلا يعطيها إلا لمن أحب.

ولذلك فلا ينبغي أن نجعل الدنيا هي المعيار في الحكم على الناس ولا ينبغي أن نقرب أو نكرم أهل الغنى والجاه ممن يعيشون في الأرض الفساد والذين خلت قلوبهم من التقوى والصلاح بل ينبغي تكريم وتقريب أهل الإيمان كما بيَّن الله لنا ذلك على لسان ذي القرنين في كيفية معاملة الناس: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

* * *

القلة والكثرة في القرآن

وهذا ينطبق أيضًا على آيتنا هذه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالمكرم عند الله هو الذي ينبغي أن يكون مكرمًا عند الناس.

فلا تحفل برأي أكثر الناس أو تعتد بمقاييسهم الزائفة فالكثرة في القرآن غالبًا ما تأتي في مواضع الذم بينما القلة تأتي في موضع المدح يقول عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول أيضًا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. ولذلك يرد في القرآن أن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يعلمون ولا يشكرون بينما يقول الله في القلة المؤمنة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ

الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ويقول أيضًا: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فالمقياس الحقيقي هو ما عند الله ولذا يقول عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وانظر إلى هؤلاء المشركين من أهل مكة الذين افتخروا بأنهم يسقون الحجيج ويقومون على خدمتهم ولذلك فهم في نظرهم أفضل من المؤمنين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله فحسم الله القضية ووضع الأمور في نصابها. فهؤلاء وهؤلاء لا يستوون عند الله بل المؤمنون أعظم درجة عند الله، قال عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢] ولعلك تلاحظ أن العندية المباركة قد تكررت ثلاث مرات في هذه الآيات السابقة.

وانظر أيضًا إلى قوله عز وجل في شأن موسى عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. فهو عند الله وجيه وينبغي أن يكون عندنا وجيهًا كذلك ولقد اغترّ فرعون بملك مصر ووصف موسى عليه السلام بأنه مهين كما في قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] فأهانه الله في الدنيا فأغرقه وجعله عبرة لمن خلفه وآية، وجعله في قبره معذبًا مهانًا ويوم القيامة يجعله في الأذلين ويذيقه من العذاب المهين.

فكثير منا له وجاهة عند الناس ولكنه ليس وجيهًا عند الله وكثير له وجاهة في الدنيا ومكانة ولكنه في الآخرة لا يزن عند الله جناح بعوضة ولذلك قال الله عز

وجل في شأن عيسى عليه السلام: ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥] وكذلك الشأن في إسماعيل عليه السلام إذ قال الله فيه: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] فالمهم رضا الله لا رضا الناس ولذلك يقول عز وجل في شأن المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦] ولذلك يقول في نفس السورة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ويقول عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩].

فلا تغتر بما عند الناس فهو عرَض زائل فلما قال قارون مغترًّا بكنوزه ومعتزًّا بحظوظه الدنيوية: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] كانت النتيجة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] فزال ما عنده وذهب أدراج الرياح وأيضًا لما كذب الكفار بالرسل وفرحوا بما عندهم من العلم أهلكهم الله عز وجل كما في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣] وما أصدق قول الفضيل ابن عياض رحمه الله: (الزم سبيل الهداية ولا يضرك قلة السالكين وإياك وسبل الغواية ولا تغتر بكثرة الهالكين).

* * *

الجار قبل الدار

وانظر إلى امرأة فرعون وإلى حسن تقديرها للأمور وكيف قاستها بميزان الله عز وجل فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فقد بدأت بالعندية المباركة وقدمت الجار على الدار ومن قبلها قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولذلك لم يضيعهم الله عز وجل بل أكرم إبراهيم عليه السلام في ذريته أيما إكرام إذ جعل فيهم

الكتاب والنبوة وآتاه أجره في الدنيا وجعله في الآخرة من الصالحين.

فالإكرام الحقيقي إذن إنما يكون عند الله عز وجل يوم القيامة فمن أدخل الجنة فهو المكرم حقًّا كما قال عز وجل: ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ [الصافات: ٤١-٤٢] وقال عز وجل في مؤمن سورة يس: ﴿ **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

فأكرم نفسك بالعمل الصالح واكتساب التقوىٰ في الدنيا لتكون يوم القيامة من الفائزين والمكرمين. فالناس صنفان: إما مؤمن مكرم علىٰ الله وإما كافر مهان كما ورد في حديث الترمذي الذي مر بنا من قبل: «**الناس رجلان، رجل بر كريم على الله،ورجل فاجر شقي هين على الله**» والإنسان هو الذي يكرم نفسه أو يهينها، يكرمها بتزكيتها وتطييبها وباكتساب وعمل الصالحات ويهينها بتدسيتها وتلويثها وبفعل المعاصي والسيئات وهو بذلك يسير علىٰ درب الشيطان الذي نظر إلىٰ الأمور نظرة عنصرية ضيقة وبغيضة فقصر الأمر في الموازنة بينه وبين آدم علىٰ النار والطين أي: نظر فقط إلي العنصر والمظهر دون الجوهر والمخبر فظن أن الإكرام فقط في العناصر والماديات التي لا دخل للإنسان فيها أو اختيار فقال: ﴿**أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٦٢].

* * *

أكرمنا ولا تهنا

وكذلك يفعل الإنسان حين يفقد المعيار السليم الذي توزن به الأمور ويضل عن سواء السبيل فيظن أن العطاء في الدنيا هو وحده المقياس وأنه دليل الإكرام فنقول كما حكىٰ عنه القرآن: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ [الفجر: ١٥-١٦]

ولذلك صحح الله له الأمر فقال: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧- ٢٠] فأكرم اليتيم وحُض على طعام المسكين واعمل الصالحات واهجر السيئات تكن يوم القيامة من المكرمين كما قال عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فمن أكرم اللهُ فهو المكرم حقًّا ومن أهان الله فلا مكرم له من بعده كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] ولذلك نقول في الدعاء: (اللهم أكرمنا ولا تهنا) وهكذا عشنا في تلك الصفحات مع أنوار كلمة التقوىٰ فهي بحق درة هذه السورة الكريمة وواسطة العقد فيها. وعليها ـ كما مر بنا من خلال آيات التقوىٰ في القرآن ـ مدار الأمر كله فاللهم احشرنا في زمرة عبادك المتقين واجعلنا عندك يوم القيامة من المكرمين.

ولكن قبل أن نختم كلامنا حول هذه الآية الكريمة قد يخطر على البال سؤال وهو: لماذا قال اللَّه: ﴿يا أيها الناس﴾ في هذه الآية ولم يقل (يا أيها الذين آمنوا) مع أنه قد تكرر النداء بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خمس مرات قبل ذلك؟

والجواب أنه في هذا النداء لم يقل: (يا أيها الذين آمنوا) بل قال: ﴿يا أيها الناس﴾ لأن الكلام بعد (يا أيها الناس) يقتضي ذلك، فقد قال اللَّه عزَّ وجلَّ بعدها ﴿إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل﴾ فهذا الخلق من آدم وحواء، وهذا الجعل شعوبًا وقبائل ليس قاصراً على المؤمنين وحدهم بل هو يشمل ويعم الجنس البشري كله، مؤمنهم وكافرهم. فهو نداء تلحظ فيه عظمة الألوهية، فهو خطاب علوي من رب العزة جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه لكل عباده ويدخل فيه الذين آمنوا أيضًا.

فإذا اختلفت الأجناس وكفر بعض الناس فلا ينبغي أن يكون ذلك مدعاة للتقاتل والتباغض والسخرية واللمز والتنابز بالألقاب أو إساءة الظن والتجسس والاغتياب، بل لا بد أن يكون هناك حدّ أدنىٰ يتفق عليه الناس وأن تكون هناك

قواعد وأصول يرجع إليها في كيفية التعامل والأسس التي تقوم عليها العلاقات بين الناس، ولا بد أن يكون هناك قدر معين من التعارف والتعاون والتآلف، مع شيوع قيم التسامح والاحترام المتبادل والثقة بين كل الأجناس والشعوب والقبائل، فإنه لا يمكن لأي عمران بشري أو تجمع إنساني أن تقوم له قائمة مع وجود مثل هذه الرذائل كالسخرية والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة التي تنخر في بنيان المجتمعات البشرية وتأتي عليها من القواعد.

وما من أحد يعقل أو كان ذا فطرة سليمة إلا ويحب أن يُعامل بالاحترام والتقدير، فينبغي أن يُعامِل هو غيره بمثل هذه القيم والمبادئ والمعايير. فهذه الأمور تعد من المسلمات التي لا غنىٰ عنها لأي مجتمع من المجتمعات، فهي الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه كل العلاقات، ألا وهو أساس التقوىٰ، أي اتقاء كل ما فيه إيذاء للناس كالسخرية والتجسس والاغتياب وغير ذلك من الرذائل التي وردت في سورة الحجرات.

وهذا ما يسمَّي بالقاعدة الذهبية وهي أن تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به فتكون محسنًا إليهم، وأن تتحاشىٰ معاملتهم بما تكره أن يعاملوك به فتكُفَّ أذاك عنهم. وهو ما يعرف أيضًا بالقانون الطبيعي الذي تعارف عليه الناس وذلك قبل أن يُدوَّن ويحول إلىٰ مواد وبنود في القوانين الوضعية التي وضعها الناس للمحافظة علىٰ كيان المجتمعات البشرية من التصدع والانهيار، والتي تكفلت الرسالات السماوية بتنظيمها وذلك من أجل أن تستقر حياة الناس ويسعدوا في كل زمان ومكان.

فالإنسان في هذه الدنيا خُلق مكرمًا من قِبَل الله عزَّ وجلَّ، فهكذا قضت مشيئته عزَّ وجلَّ تكريم بني آدم، فالإنسان من لدن آدم عليه السلام وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها يسري عليه هذا التكريم الإلهي، لا فرق في ذلك بين الإنسان الأول أو البدائي وبين إنسان القرن الواحد والعشرين وما بعده، فالإنسان في كل زمان ومكان

لا تتغير خصائصه ومكوناته، فابن آدم الأول لا يختلف عن ابن آدم في العصور المتأخرة، فهناك قاسم مشترك يجمع بينهما.

فالإنسان عمومًا قد حباه اللَّه العقل والقدرة على النطق والتعبير عما في النفس، ومنحه الفطرة السليمة وأمده بنفس الأجهزة الجسدية والذهنية التي زود بها إنسان العصر الحديث، كما أنه يملك قوة التفكير التي تميزه عن غيره من الحيوانات وتجعله قادرًا على الاختيار ومن ثم التكليف وأن يكون مسئولاً عن أفعاله وتصرفاته.

فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، مثل السيارة التي اخترعت في القرن التاسع عشر فهي نفس السيارة التي بين أيدينا الآن وإن حدث بها تطوير في الشكل والمظهر وأدخلت عليها بعض الإضافات ولكن هذا لا يخرجها عن كونها سيارة، فإن نفس الفكرة تحكمها وهي أن يكون لها محرك يقوم بدفعها وتسييرها، فأصل السيارة وما أضيف إليها من التعديلات إنما يشبه قضية الخلق والجعل، فالخلق أصل والجعل إضافة وقد تكلمنا عن ذلك بالتفصيل عند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **خلقناكم من ذكر وأنثى وجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وقَبَائِلَ** ﴾.

ولذلك ينبغي أن يكون مكرمًا وأن تحفظ له مكانته وأن يكون له اعتباره في كل زمان ومكان، سواء أكان الإنسان الذي بلغ من الحضارة والتمدين شأوًا عظيمًا أو كان الإنسان الذي يعيش في غابات أفريقيا أو الأمزون، لا لشيء إلا لأنه إنسان من أبناء آدم عليه السلام، وينبغي أن يعزل عنه كل أنواع الأذى والقمع والقهر والظلم، وأن نكفل له مقومات الحياة الكريمة التي أرادها اللَّه للعباد وكما أوضحتها سورة الحجرات.

فهو إنسان له مشاعره وأحاسيسه وحقوقه التي منحها اللَّه إياه وأن يحيا حياة طيبة ولا ينبغي لأحد أن يحجر على حريته أو يمنّ أو يتفضل بها عليه، فقد أخرجنا اللَّه من بطون أمهاتنا أحرارًا ومتساوين لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا جنس على آخر إلا بتقواه وحسن معاملته للناس، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم** ﴾.

فالإنسان مكرم لذاته ولكونه فرداً في المجتمع الإنساني وبوصفه إنسانًا كرمه اللَّه وجعله في الأرض خليفة وذلك بغض النظر عن دينه أو جنسه أو لونه، فهو لا دخل له في اختيار الألوان والأجناس. أما المعتقدات فرب العباد وخالق الناس هو الذي سيحاسبهم عليها يوم الحساب. وانظر إلى قوله عزَّ وجلَّ في حق الوالدين وإن كانا مشركين: ﴿ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون** ﴾ [لقمان: ١٥].

فينبغي الإحسان إلى والديك ولو كانا كافرين وأن تحسن صحبتهما في الدنيا ﴿ **وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ فلهما عليك حق التربية والاعتناء بك وأنت صغير لا حول لك ولا طول. ولا تجعل من الاختلاف في الدين سببًا للخلاف والنزاع والصراع، فالكل راجع إلى اللَّه فيحاسبه علي ما كان منه في دنياه كما قال عزَّ وجلَّ في ختام هذه الآية من سورة لقمان: ﴿ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ** ﴾ [لقمان: ١٥].

كما أن تكريم اللَّه للبشر ينسحب على الحياة الإنسانية نفسها فلها حرمتها التي لا ينبغي انتهاكها أو المساس بها، ولذلك جعل اللَّه قتل نفس واحدة بمثابة الاعتداء على حرمة الإنسانية كلها، فبعد أن تكلم عزَّ وجلَّ عن قتل ابن آدم لأخيه قال بعدها معقبًا: ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢].

فالإنسان كما بيَّنَّا من قبل له كرامته وحرمته حيًّا وميتًا، وفي حديث البخاري أن الرسول ﷺ قام لجنازة يهودي مرَّت عليه، فلمَّا تعجَّب أصحابه قال: «**أوليست نفسًا**» فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب، فالكل في أصل الخلقة سواء، وإنما مقياس التفاضل يكون بالعمل الصالح وكف الأذى عن الناس.

كما أن هذا النداء الأخير في السورة ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ يدخل فيه المؤمنون من باب أولى، فهم قبل غيرهم يقع عليهم عبء قيادة هذا العالم وانتشاله من وهدته، وإنقاذ البشرية مما تردَّت فيه، فالمسلمون هم المؤهلون لذلك دون سواهم، فقد رأينا كيف ذاق الناس الأمرين تحت قيادة الغرب الغاشم الذي يعربد في الدنيا ويعيث فيها شراً وفساداً. ولقد كتب أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ كتابًا قيمًا بيَّن فيه مدى خسارة العالم بسبب تأخر المسلمين وتنحيهم عن قيادة الأمم.

ولكن علينا أن نصلح أولاً من أنفسنا وأن نعود إلى حمى ربنا، وأن نسير على نهج ديننا وهدي سلفنا الصالح حتى نعيد للإسلام مجده وعزته، ونعيد البشرية إلى بر السلام مرة أخرى وحتى يقول شاعرنا كما قال جرير في حائيته المشهورة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان:

كنتم خير من ركب المطايا … وأندى العالمين بطون راحِ

فقال الخليفة: صدقت، كذلك كنَّا ولا زلنا.

OBEIKAN.COM

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤-١٥].

التكامل بين سور القرآن

والحديث عن الأعراب في هذه السورة سورة «الحجرات» مكمل للحديث عن الأعراب في سورة «الفتح» التي قبلها وهو من مظاهر التكامل بين سور القرآن ولا سيما السور المتجاورة.

فهؤلاء الأعراب منافقون لأنهم استُنفروا للخروج مع رسول الله ﷺ فاعتذروا وتخلفوا عنه فهم قالوا «آمنا» بألسنتهم فلما أعلنوا إسلامهم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان مع أنه لم يدخل قلوبهم بعدُ، فكانت هذه الآية التي أدبوا فيها لادعائهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فقد تجاوزوا حدهم وادعوا ما ليس لهم بحق فكان لابد أن يُردُّوا إلى مكانهم الصحيح وكان لابد أن يدلوا إلي الطريق المشروع الذي يصل بهم إلى المطلوب.

وهم أعراب بني أسد كما في «مسند البزار» عن ابن عباس رضي الله عنهما وفدوا إلى الرسول ﷺ في المدينة في العام التاسع للهجرة ولكنهم مَنُّوا عليه بأنهم أسلموا دون أن يقاتلوه كما فعل غيرهم وأخذوا يطالبون بالصدقات وبالجزاء والعطاء على شيء لم يفعلوه أو لم يبلغوه. ومن خلال هذه الآية يتضح لنا أن هناك فرقًا بين

الإسلام وبين الإيمان فقد نفى الله عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام وهو ما بينه أيضًا حديث جبريل عند «مسلم» حيث جاء يسأل النبي ﷺ عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان فقال له: «**إن الإسلام هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إلى ذلك سبيلاً أما الإيمان فهو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**» ثم كان الارتقاء إلى درجة الإحسان وهو كما عرفه جبريل عليه السلام: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ومقام الإحسان شبيه بمقام التقوى وهذا الحديث يدل على أن الإيمان من أعمال القلوب كما قال عز وجل: ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ بينما الإسلام من أعمال الجوارح فهو نطق اللسان بالشهادتين وعمل الجوارح بأركان الإسلام وفرائضه الظاهرة وبه تحقن دماء الناس وعليه يتناكحون ويتوارثون ويدفنون في مقابر المسلمين.

ودل على ذلك أيضًا حديث أحمد: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**» وأيضًا حديث أحمد وغيره: «**اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان**» وذلك لأن الأعمال بالجوارح في الحياة أما عند الموت فلا يبقى غير قول القلب وعمله. فالإسلام قد يكون له دوافع متعددة ومن بينها بعض المنافع الشخصية والمصالح الدنيوية والمنافع المادية وغير ذلك من الحسابات والاعتبارات الدنيوية أما الإيمان فله دافع واحد فقط وهو نيل رضا الله عز وجل بغض النظر عن تلك الاعتبارات السالفة الذكر بل قد يضحي الإنسان بهذا كله ليخلص له إيمانه وكما حدث مع كثير من الصحابة كمصعب ابن عمير وصهيب الرومي وكما حدث من قبلُ مع سحرة فرعون فقد هانت عليهم الدنيا وعظمت الآخرة في أعينهم فآثروا ما عند الله.

* * *

أدب القرآن مع الأعراب

وقد تلطف الله معهم في الخطاب فلم يعنفهم فحينما ادعوا الإيمان لم يكذبهم فهو لم يقل: (قد كذبتم) ولكنه اكتفى بأن نفاه عنهم بقوله عز وجل: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ كما أنه لم يقل لهم: (لا تقولوا آمنا) لئلا يُتوهم أن يكون في ذلك نهي لهم عن الإيمان وقد كان القياس أن يقول: (قل لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم ولا تقولوا آمنا وقولوا أسلمنا) فهذه الأمور لم تذكر اكتفاءً بدلالة الكلام عليها فقد حذف من إحدى العبارتين اللتين تتكلمان عن الإسلام والإيمان ما يدل عليه في العبارة الأخرى وهو ما يسمى في علم البلاغة «بالاحتباك» أي حذف من الأول ما يقابله في الثاني وحذف من الثاني ما يقابله في الأول والأصل أن يقال: (قل لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا) وهو من اختصارات القرآن وبلاغته.

كما أنه كيف يؤمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم: (قل لا تقولوا آمنا) وهو ما بعث إلا ليدعو الناس إلى الإيمان كما قال عز وجل: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] ثم كيف ينهى الله عز وجل عن الإيمان وقد أمر به كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] وأيضًا لم يقل: (ولكن أسلمتم) وذلك ليتفادى إخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد بما يقولون مع احتمال كونه مجرد قول باللسان وهكذا خرج الكلام مخرج الحيدة والموضوعية والإنصاف بل اللطف والإحسان رغم ما كان منهم من إساءة أدب وتجاوز للحد وعدوان.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ نفي للإيمان عنهم مع انتظار دخوله وترقب حصوله، ولذلك لم يكن قوله هذا تكرارًا لنفي الإيمان عنهم والمدلول عليه بقوله في صدر الآية ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ وهناك فرق بين «لم» و«لمّا» فـ«لم» تجزم المضارع وتنفيه في الماضي أما «لما» فتنفيه في الماضي إلى الحاضر فلو قلت: (لم يتصل

محمد ولم يحضر) فأنت تنفي أحداثًا وقعت في الزمن الماضي ولو قلت: (لمّا يحضر محمد) أي: لم يحضر إلىٰ الآن ولكن ينتظر حضوره ويتوقع وصوله كقوله عز وجل: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨]. أي: لم يذوقوه إلىٰ الآن ولذلك يقولون ما قالوا ولكن هؤلاء الكفار سيذوقونه بعد ذلك.

فاستخدام لمّاَ في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ دلَّ علىٰ أن الذين أسلموا منهم يُرجىٰ لهم الإيمان وأنه متوقع حصوله منهم عند اطلاعهم علىٰ محاسن الإسلام وتذوقهم لحلاوته فهذا بمثابة الوعد لهم والبشرىٰ بأنهم سيكون منهم الإيمان الصحيح بعد ذلك ففي حديث مسلم: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلىٰ قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمدًا يُعطي عطاءَ من لا يخشىٰ الفقر وإن كان الرجل ليسلم ما يريد بإسلامه إلا الدنيا فما يلبث يسيرًا حتىٰ يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها».

* * *

الإسلام والإيمان

والإسلام يُعْرف بظهور أثره علىٰ الجوارح فهو التزام بشعائر الإسلام والإتيان بأركانه وفرائضه والتي بأدائها يدخل المرء في عداد المسلمين أما الإيمان فهو يتعلق بالقلب ولا يطلع عليه أو يعرف حقيقته إلا علام الغيوب فقد جاء الشرع باعتبار الظاهر وأوكل إلىٰ الله أمر السرائر فالله لم يكلفنا بالتفتيش علىٰ ما في القلوب والضمائر وقد جاءت نصوص قرآنية كثيرة تبين لنا ذلك الارتباط بين القلب والإيمان كقوله عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]وقوله أيضًا: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا

بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

فالإيمان هو التصديق بالله ورسوله ﷺ مع اقتران هذا التصديق بالأعمال فحقيقة الإيمان تشمل جميع شعب الإيمان وتستوفي جملة أجزائه الواردة في الحديث المتفق عليه: «الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» ولذلك أنكر السلف الصالح بشدة على من أخرج الأعمال من الإيمان واستدلوا في ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: ما كان الله ليضيع صلاتكم التي أديتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فالإيمان قول وعمل وعقيدة راسخة في القلب وهذا المعنى هو الذي أراده البخاري في كتاب الإيمان وعليه بوَّب أبوابه كلها فقال: (باب الصلاة من الإيمان) و(باب الجهاد من الإيمان) و(باب حب الرسول ﷺ من الإيمان).

والإيمان تصديق مقترن بطمأنينة القلب وهؤلاء الأعراب ما وقر الإيمان في قلوبهم بل أسلموا أي استسلموا وانقادوا وخضعوا خوف القتل والسبي وليعصموا أموالهم فهم مسلمون في الظاهر أما حظهم من الإيمان فقليل أو منعدم وإن ادعوا خلاف ذلك وزعموا أنهم آمنوا إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع شروطه ولذلك كذبهم الله في ادعائهم الإيمان وعليه فهم منافقون وهذا ما ذهب إليه واختاره البخاري ـ رحمه الله ـ لأنهم مسلمون في الظاهر وكفار في الباطن فالإيمان لم يدخل قلوبهم إلى هذه الساعة وقد يصلي الرجل ويتصدق وهو يضمر الكفر والنفاق ويظهر الإيمان يقول عز وجل في شأن المنافقين: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣ ـ ٥٤].

* * *

القرآن يفضح المنافقين

وهؤلاء الأعراب الذين تتكلم عنهم الآية منافقون فقد استنفرهم الرسول ﷺ ليخرجوا معه لأداء العمرة في عام الحديبية ولكنهم ظنوه لن يعود سالمًا فاعتذروا له وتخلفوا عنه وهو ما أوضحته آيات سورة الفتح في قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١١-١٢].

وقد فضحت أيضًا آيات سورة التوبة هؤلاء المنافقين الذين استأذنوا النبي ﷺ في القعود عن الجهاد بدون عذر فهم على طرفي نقيض مع المؤمنين قال عز وجل: ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥] وقد حفلت آيات سورة التوبة بالتنديد بمواقف المنافقين كما تكلمت أيضًا عن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيتنا هذه من سورة الحجرات والذين ينطبق على أكثرهم قول الله عز وجل: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ التوبة: ٩٧] وقوله أيضًا: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ [التوبة: ٩٨] وانظر في ذلك أيضًا إلى قوله عز وجل في المنافقين: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [الحديد: ١٤-١٥] وقوله أيضًا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢].

والإيمان مكمِّل للإسلام فهما ليسا نقيضين ولذا قال العلماء: إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا فإذا اجتمعا في موضع واحد كما في آيتنا هذه كان لكل واحد منهما معنى مختلف عن الآخر كما في قوله أيضًا: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فالإسلام يراد به الأقوال والأعمال الظاهرة، والإيمان يراد به الاعتقادات الباطنة.

فالإسلام لغة: الانقياد والإذعان ومنه إسلام الوجه لله عز وجل أما الإيمان فهو الاعتقاد والأقوال والأفعال.

و الإيمان لغة: هو التصديق من قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمؤمن لنا. والإيمان محله القلب فالمؤمن يؤدي فرائض الدين وهو مؤمن بوجوبها وقلبه مطمئن بها.

أما إذا افترقا فمعناهما واحد وكل منهما يستلزم الآخر كقوله عز وجل: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي: على الإسلام والإيمان معًا وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: أن الدين كله أصوله وفروعه من الاعتقادات والأعمال والأقوال. وكذلك إذا ذكر الإيمان وحده فيراد به الدين كله كقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وهو يشمل المسلمين أيضًا أي: من أسلم وجهه لله وهو محسن.

❊ ❊ ❊

صفات المؤمنين

وقد فتح الله في هذه الآية المجال أمام الجميع ليرتقوا وينتقلوا من الإسلام إلى الإيمان وبيّن لهم أن الإيمان ميسور ومقدور عليه وليس عسيرًا أو شاقًّا الحصول عليه أو بلوغه فهو في وسع مَنْ أراد الوصول إليه فقال عز وجل في ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤] فمدار الأمر على الطاعة وهو موضوع السورة فقد بدأت كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ

يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾. ومعنى قوله: ﴿لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم مثقال ذرة بل يوفيكم إياها كاملة غير منقوصة ويزيدكم من فضله فهو الغفور الرحيم.

فالله عز وجل كما وصف نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وقوله أيضًا: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

أما قوله عزو جل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فهي تعريف تفصيلي للمؤمنين بعدما وُصِفوا ضمنًا بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فهو تعريف جامع ومانع فمن اتصف بهذه الصفات كان مؤمنًا حقًّا كما أن من فقد شيئًا منها فليس بمؤمن حقًّا. وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ فـ(ثم) تفيد التراخي أي: أن إيمانهم من الثبات بحيث لا يتعرض للاهتزاز أو يعتريه شك أو ارتياب فمهما طال به الزمان ومهما مر على صاحبه من المحن والابتلاءات فإن إيمانه لا يتزلزل ولا يتذبذب فقد يخلص الإيمان إلى القلب ثم يتعرض بعد ذلك ما يخدش إخلاصه فنفى عنه ذلك فحاله كحاله في الزمان الأول الذي نشأ فيه فـ(ثم) تفيد نفي الريب عنهم ليس فقط وقت حصول الإيمان ونشوئه بل هو مستمر وقائم بعد ذلك.

فكأنه قال: آمنوا ثم داوموا واثبتوا على ذلك كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

فهو إيمان طري جديد يقوى ويصمد كلما هبت عليه رياح الفتن حينًا بعد حين ولذلك استخدم (ثم) ولم يستخدم الواو فلو قال: (ولم يرتابوا) لكان يصدق ذلك على نفي الريبة عن الإيمان في أول أمره مع السكوت عما يحدث له من الزلازل

والمحن بعد ذلك . فلو قال : (لم يرتابوا) لكان فقط شرط عدم الارتياب حال عقد الإيمان . ولكن باستخدامه لحرف العطف (ثم) أفاد ثبات الإيمان على استحكامه الأول واستقراره في القلب دون أن يتغير أو يتزلزل كقوله عز وجل : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب : ٢٢-٢٣] .

فالقضية ليست فقط في نشوء الإيمان ولكن في المحافظة عليه واستمراره ، فالمؤمن إذا دخل الإيمان قلبه ورفع راية الإيمان فإنه لن يُترك هكذا بل لا بد أن يفتن ويتعرض لصنوف من الابتلاء والمحن كما في قوله عز وجل : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢-٣] .

* * *

«ثم» الدلالة والإشارة

وفي قوله : ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إشارة إلى ما حدث من الصحابة في صلح الحديبية وما اعترى قلوبهم من شك لولا أن عصمهم الله وأنزل السكينة في قلوبهم وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وثبتهم عليه . ولذا ذكر هنا أن المؤمنين حقًا هم الذين آمنوا بالله إيمانًا صحيحًا وصدقوا برسوله ﷺ وانقادوا لأوامره وأذعنوا لحكمه إذعانًا كاملاً مقرونًا بالرضا والتسليم التام الذي لا تؤثر فيه شبهة بعد ذلك أو تطفو على سطحه أثارة من الارتياب ولا يظهر في سمائه سحابة من شك أو تردد أو انتكاس أو اهتزاز ، بل يجب أن يكون إيمانًا خالصًا من كل الشوائب والأكدار ، ثابتًا ثبات الشُم الراسيات لا تزيده الأعاصير إلا توهجًا وتألقًا وصلابة وقوة لا ينال منه شيء ولا تلين له قناة كما قال عز وجل : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ آل عمران: ١٧٣].

وانظر في ذلك إلىٰ قوله عز وجل: **﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [آل عمران: ١٣٩]. فالمؤمن يستعلي بإيمانه ولا يضعف أو يستكين أو يتنازل أو يساوم أو يجامل أهل الباطل بل ينازلهم حتىٰ يلزمهم الحق أو يحدث الله أمرًا كان مفعولاً.

يقول عز وجل: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٦]. فالإيمان الحق له تضحيات كثيرة وطريقه طويل وشائك وانظر في ذلك إلىٰ ما حدث لأصحاب الأخدود وأيضًا إلىٰ حديث البخاري:

«لقد كان الرجل من قبلكم يؤتى به فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه».

ولكن العاقبة للمتقين الصابرين ولذلك ختم الرسول ﷺ حديثه السابق بقوله: **«والله ليتمن الله هذا الأمرحتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».**

* * *

دليل صدق الإيمان

ثم ذكر الله دليلاً علىٰ صدق الإيمان وهو الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس فجهاد الكفار والمشركين والتضحية بالنفس والنفيس والغالي والرخيص دليل علىٰ ثبوت الإيمان في القلب. ولذلك خص الله الجهاد بالذكر؛ لأنه أشق أنواع الطاعة فالجهاد هو محك الإيمان الحقيقي فهو إفراغ الجهد وبذل ما في الوسع لتكون راية الله

هي العليا ولا يكون ذلك إلا عندما يتخلص القلب من شوائب الشرك والشك والارتياب ولذلك لم يذكر مفعولاً لفعل الجهاد؛ ليعم جهاد النفس مع جهاد الأعداء.

وهكذا يبين الله لنا أن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال باللسان كما فعل هؤلاء الأعراب الذين أرادوا أن يُنزلوا أنفسهم منزلة المهاجرين والمجاهدين دون أن يهاجروا أو يجاهدوا أو يبذلوا شيئًا في سبيل هذا الدين فلما طلب منهم الجهاد تخلفوا واعتذروا ولما ظهر أمر الإسلام جاءوا مذعنين فالإيمان له شرائط ومقتضيات فمن أداها كلها كان في زمرة الصادقين الذين قال الله في شأنهم في ختام الآية بعد أن عدد صفاتهم: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

وفيه تعريض بأنه من لم يستوفِ هذه الشرائط فهو ليس من الصادقين وأن دعواه للإيمان إنما هي مجرد ادعاء كاذب يحتاج إلى دليل وإلا فليس له حظ من الصدق أو نصيب.

❊ ❊ ❊

بين الرشد والصدق

قد مرَّ بنا الكلام عن الأعراب الذين ادعوا الإيمان ولم تكن هناك أمارة تدل على صدقهم فكذَّبهم الله في دعواهم وذلك في قوله عز وجل: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي مقابل هؤلاء ذكر الله صفات المؤمنين الصادقين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥] ثم ختم الآية بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. وتلك الخاتمة التي ختمت بها آية الصدق هذه تذكرنا بالخاتمة التي ختمت بها آية الرشد وهي الآية السابعة من سورة